حطام

قصة

لمحمود سيف الدين الايراني

— ١ —

كان يسير دون اكتراث ، غير مبالٍ ، دون وعي ، في شيء كثير من اللامبالاة الطارئة . في مثل هذه الحال تستوي القيمُ جميعاً في احساس الانسان : الاخلاق ، القانون ، النظام ، العرف . جميعها اشياء تافهة ، لا قيمة لها مطلقاً . الجريمة نفسها تبدو عرضية ، فاتنة الخيال ، لها نغم عميق القرار يستهوي النفس المكدودة ... وارتعش ارتعاشة حادة ، مؤذية من قمة رأسه حتى أخمص قدميه . أيمكن ذلك ؟ أتكون الجريمة في بعض الاحيان سبيلاً الى الخلاص ؟ ثم ... هل تجد الجريمة — وهذا في رأس القائمة — ما يسوّغها في أحوال معينة ؟ لقد وجد البطل الروسي [1] مسوغاً مقنعاً لجريمته ، بدا له اول الامر قوياً المنطق ، شديد البيان ، ولكنه أخفق في النهاية . كانت الفكرة فلسفية محضة في عقله ، كانت شيئاً كمبادلة جبرية أو لظرية هندسية : « الخط المستقيم هو اقرب طريق بين نقطة وأخرى » — ليس في هذا ريب — تبادلها من ناحية ثانية هذه النظرية : « لا قيمة لحياة انسان عقيم اذا كان في القضاء على هذه الحياة ما يعود على الآخرين ، الموهوبين ، بالخير ويفسح أمام مواهبهم الموءودة الطريق على رحبه » ! قياس حاذق ، ولكن المسألة هنا لا تقاس على هذا النحو وفي مثل هذه الدقة الحسابية ، محال أن تأتي نتيجة فكرة ذهنية — في حالة نفسية موكول امرها الى الضمير ، بل الى مجموع القيم المثوية لوجود الانسان — مطابقة تماماً لمائة نظرية مادية محدودة الافق ، كل نجاحها في تطبيقها العلمي الدقيق . محال ، لا ريب في ذلك مطلقاً لقد أخطأ رسكلنكوف وظلت عواقب هذا الخطإ في أعقاب ضميره تلاحقه وتهاجمه وتبليه بالصرع والهذيان : « أجل محال ... محال ان يقوم الخير على أساس من الشر » . أومضت هذه اللمحة الاخيرة في أعماقه ايماضاً خاطفاً ، ثم غامت على فكره سحابة خمول ، بعد هذه الاشراقة السريعة عاوده احساسه الحاد بتعاسته ،

(١) رسكلنكوف في قصة « الجريمة والعقاب » لـ « دوستيفسكي »

دفع مرة أخرى في أحشاء بلاهته وفجأة لاحت له هذه الفكرة الصائبة : ربما الجريمة موجودة مع ذلك ، رغم كل شيء لا بدَّ ان تكون ثمة حاجة الى الجريمة لا يقوى على ردها ضمير ولا يحول دونها خير أو شر . حاجة نفسية تبرز بجميع الاعتبارات « والاَّ فما هو هذا الحنين في نفسي الى الجريمة ؟ » وخيل اليه لحظة انهُ لو أُعطي سكيناً او مسدساً فهو خليق ان يرتكب جريمة القتل بكل ارتياح في نشوة وظفر ! « هأنذا قد عدت الى التفكير من جديد . هل جميع الذين يفتلون يفكرون هكذا ، باللحاقة . اني لأعجز من طفل وأحقر من ذبابة . . . » أحقر من ذبابة ؟ لا ريب في ذلك البتة . وأحس بارتياح الى هذه الكلمة وراح يرددها ويلوكها بين شدقيه : « أحقر . من ذبابة . أحقر من ذبابة . »

وعادت الجريمة ، من جديد ، تبسم له وتغريه وتكشف له عن عريها الفاتن . وتتم . وقد زاد خفقان قلبه : « لم لا ؟ » وعلى الأثر سرت في بدنه رعدة ، وغرقت الصورة في لجة فائرة ثم عادت تطفو وتتأرجح فوق اللجة ، مزهوة ، يرقصها الموج ، وصوبت اليه نظرة طويلة فائرة ... كلها شهوة وشبق . تدعوه الى لذة خارقة . فيها وعود ووعود . . . وتحرك في ضميره هذا السؤال : « أليس هذا معقولاً ! لم لا تكون الجريمة سبيلاً الى الخلاص ؟ » ولاح له ان الطريق قد انفسح أمامه بسرعة البرق ، الى ما لا نهاية ، ثم عاد بنتة وألصق عليه بقسوة خارقة ، وبدا له كأن ثمة أناساً خيفاً قد التفّ حول عنقه وراح يضغط ويضغط . فانبهرت أنفاسه ، واختفت الصورة الفاتنة وراء أفق قصي ، ثم عادت — لا يدري كيف — تتراقص فوق موجة ، وتبسم في سخرية وازدراء ... ولم تلبث أن غرقت في أغوار سحيقة ، أغوار نفس مكدودة . مهينة . استفاق بنتة ولا يزال صدى فحيح بعيد يصافح سمعه : « أعجز من طفل وأحقر من ذبابة » ! وشعر بحقارته هذه المرة شعوراً واضحاً جداً . ولكنَّ له — على ضوء لحظة نيرة — ان يزن ويقارن ويستنتج : « لو لم أكن حقيراً ومنحطاً ... لما عجزت ولما كان الاخفاق يعرقل سيري كيفما سرت وابان اتجهت . والاَّ فكيف صحَّ لي ان أبلغ الأربعين وأنا في مثل هذه الضآلة المهينة ؟ ثم . لماذا يلاحقني الاخفاق ، بل ويطاردني ، ويأخذ بتلابيبي ويتشبث بأذيالي ولا يدع لي منفذاً الى أي سبيل ؟ ولماذا يمتاز جميع الناجحين في الحياة ليتقدموا وتسر جهودهم ويكافأوا وأخفق أنا وأرقد مقهوراً ذليلاً ؟ لا تعليل لذلك سوى اني حقير جداً حقارة يشعر بها الجميع ويرونني مثلاً حيّاً لها »

ووقف هنيهة ذاهلاً مدهوشاً : لماذا لم يفكر في هذا من قبل ؟ لِمَ لم يهتدِ الى هذا السبب البديهي الاَّ في هذه اللحظة : « أكان عسيراً عليَّ ان أفهم ذلك ؟ لا ريب في اني حقير . وغبي ايضاً . والاَّ لما اعوزني كل هذا الوقت الطويل لأتبين الحقيقة » وراح يتابع سيره كالحائم ،

كالسان مكدود مضنى . وكان الهواء مكتوماً خانقاً ، والليل حالكاً شديد الوطأة . وكان الشارع الكبير يمتد أمامه ، لا تكاد المصابيح القائمة على جانبيه تتغلب بنورها الخابي ، المحتضر ، على حلوكة الليل الطاغية . وخيل اليه — في احساس مفاجيء — ان هذه المصابيح أشبه ما تكون ، فوق عمدها الغريبة ، برؤوس فلاسفة حمق تحترق لتنير الطريق الابدي أمام مشرد يائس منه !

ولكنه لا يزال يسير ، ولا يزال هذا الشارع الكبير يمتد أمامه ويمتد . وتتفرع عنه أزقة ومنعطفات وحارات متعددة . ثم تتصل به شوارع أخرى وغيرها وغيرها . كشرايين مخلوق خرافي جبار . في قلب هذه المدينة الصاخبة ، تمتص دماء ابنائها ، تستنفد حياتهم ، تستنزفها قطرة قطرة . تزدرد منهم كل شيء : آمالهم . أحلامهم . أحقادهم . همومهم . تفتك بهم من حيث لا يدرون . ولا يفتأون يقدمون لها وقودها الأبدي ولا يفتئون ابداً من شباكها ، في تطاحن مستمر ، أبدي الهول ، مفترس كوحش جائع ، لا يشبع أبداً . ثم تسلمهم لذل هذا الليل البائس هذا الحيوان الاسود ، الرابض المنبثق الصمت كمقبرة قذرة : « أجل كمقبرة . مقبرة قذرة ، بلا ريب في ذلك ». وأحس بشيء من الراحة لهذه الفكرة ، كأنما قد أفرغ فيها كل ما في صدره من كراهية وغل قديم

ورفع رأسه الى السماء الكئيبة ، وهو لا يني يسير ، غدا سيره تكأكاً مملاً ، شيئاً كالطرب ، يدفعه احساس مبهم ، كأنما يريد ان ينجو . أي شيء هذا الذي يلاحقه بقسوة ويشرده في هذا الليل الطاغي ؟ رفع رأسه الى السماء بذهول كأنما قد وهن ذهنه . ولكن فجأة أومض في رأسه خاطر : قابل بين هذه النظرة المكدودة الذاهلة المرفوعة الى السماء ، وبين نظرة اخرى للمفروض فيها — في مثل حاله ويأسه — ان تتجه به . . . بماذا ؟ أوه ! بالدعاء والابتهال مثلاً . . .

أي دعاء ؟ وانفجر ضاحكاً بسخرية ، بمرارة عميقة مفجعة ، ضحكة مجنون ، ضحكة نادرة تعبر إما عن اقصى شعور بالفرح والسعادة ، وإما انها تدوي بأهول أصداء العذاب والألم — وبغتة وقف في عرض الشارع وراح يتحسس نفسه كمخبول . وانحدرت يده الى جيبه وأخرج منها بضع قطع فضية — كل ثروته — وراح يتأمل لمعانها تحت نور مصباح باهت . واختلجت شفتاه ، وسرت في جسمه رعشة ، وكأنما استقر على رأي فجائي وتمتم : « حسن . حسن جداً . » وخيل اليه انه يرى فوق رأسه ، في هوة السماء ، نجماً يهوي بسرعة وقد خط وراءه خيطاً منفوساً لامعاً لم يلبث ان غاض وانمحى . فابتسم ابتسامة بلهاء ، واختلجت في ذهنه عبارة شكسبيرية بشوهة : « ان على الارض وفي السماء لأسراراً تعجز عقولكم عن ادراكها » . وبرز النجم الهاوي — في لوح خياله — من جديد ورآه يهوي مرة اخرى وهو يجر وراءه ذيله اللامع المقوس . وتبادر الى ذهنه انه صنو هذا النجم الهاوي ومثيله ، ومصيره الى الهوي والسقوط من شاهق كمصيره ، وعادت هذه العبارة تملأ نفسه : « ان على الارض وفي السماء . »

اين قرأها ؟ أفي حمات أم في مكث أم في الماصنة ؟ ثم هل هو واثق بأنها وردت على لسان شكسبير . هكذا كما تبادرت الى ذهنه هو ؟ وناداه كل هذا الاحتفال بها ، اي جديد فيها مما لم يفطن اليه أحد من قبل ؟ يا للحماقة ! وهمَّ ان يلقي عن صدره هذا العبء الجديد ويطلق من أعماقه نفساً طويلاً ، عريضاً ، مريحاً ، ويطلق مهرولاً خفيفاً ، أسعد ما يكون بالرجوع الى أحضان بلاهته ، ولكنهُ حبس أنفاسه فجأة وراح يهذي كمشوه : « ليس ذلك كله مصادفة ومحض اتفاق ! لابد ان يكون لهذا معنى . معنى عميقاً ! » وهلع قلبه ، وتخاذلت ركبتاه من تحته ، وغشيته غاشية وتقمَّصه جيئةٌ لمرق بارد ، لزج كريه . فقد تمثل نفسه يهوي من حالق الى حضيض قرار سحيق ويتحطم شظايا طائرة . ثم أفاق وكل عضو في جسمه يرتعش ، وكل عصب يرتعد وينقبض ، ومفاصله كلها قد وهنت وخارت ، وقلبه يدق في قفص صدره ويكاد يثب من حلقه . واستلقى بظهره الى عمود النور قبل ان يتهافت على نفسه وينهار . وبقي فترة على هذا الوضع الى ان سكن طائره ، وعاد اليه بعض روعه واطمأنَّ الى الارض الثابتة تحت قدميه . فتنفَّس الصعداء وأخرج منديله القذر وراح يمسح جيئةُ ووجههُ وهو يردد : « أعجز من طفل وأحقر من ذبابة . . . » وشردت بذلك وأنت عنه كلاب الليل بنباحها البعيد . وهبت نسمة ليلة رطبة واوحت جيئته المحموم فانتعش قليلاً وأشعل لفافة حقيرة واستل منها نفساً عميقاً ملأ به رئتيه ثم أرسله من تحتي أنفه وفمه في نفثة شديدة حرَّى ، وراح يقذف السيل وقد نسي فجأة كل شيء . . . عاد كل شيء منزلقاً الى الاعماق ، تحت طبقة كثيفة ، يسبح نحو جحوره وسراديبه . وخيل اليه ان خوفه وقلقه وتطيره اشياء تافهة جداً . . . حتى حقارته نفسها لم يعد لها في شعوره ذلك الوقع المؤلم ولم يبق شيء يملأ نفسه وتفتيه له جوانبه جميعاً الا صورة واحدة لا تنشأ هي الاخرى تخايله من وراء سحابة رقيقة : « حانة ضيقة . . . بعض المقاعد وموائد صغيرة قذرة . . . وفتاة متبرجة »

— ٢ —

لهذه الحانة مزايا جديدة تجعلها في رأيه نادرة المثال ، فهي رخيصة جداً اي انهُ يستطيع ان يغرق فيها همومه ويذيبها كل ليلة بقروش يسيرة ، ثم هي مأوى لأناس يلذُّ له ان يجالسهم ويستمع اليهم ، قد يكون هذا عند غيره ولعاً بدراسة طبائع الناس واخلاقهم واختيار ميولهم واهوائهم وغرائزهم . . . الى آخر هذا الهراء . . . كلا ليس هنا السر ، ولا ثمة مرابط الفرس : المسألة عنده لذة خاصة ، « كيف ومزاج » ، ولكنها تبقى مع ذلك حائرة تتذبذب بين امرين ، ليس من السهل الأخذ باحدهما دون الآخر : فهو اما ان يغترف من همومهم وتعاساتهم ما يضيفهُ الى رأسماله الخاص ، همٌّ فوق همومٍ تطرات بصبها في كأسه العامرة أبداً . . . قطرات لا تطفح بها الكأس ولا تفيض . . . ولكنها تكثف مادتها وتزيدها حرارة . وإما انهُ يلتذ شقاءهم ويستمرئهُ ، فيخدعهم بما يبدو عليه من الاهتمام بهم والاصغاء اليهم ، وهم غافلون عما وراءه من قلوبهم بوقود يلهب جفيظته

و يشعل ابداً نار البغض والكراهية في صدره . هذا وهو في هذا كأنما يقتسم نفسه بشقائه الخاص في الشقاء العام ، يتذوقه بشراهة كلب يهش جيفة كلب آخر . . .

اما أعظم مزايا هذه الحانة وأغلاها وأتمها وأنقاها فهي هذه الفتاة المتبرجة دائماً . . . التي لا تفتأ تدور رائحة غادية بين الموائد توزع ابتساماتها على الجميع ولا تضن بنمرات عينيها على هذا وذاك . . . على طرف لسانها كلمة مهيأة لكل واحد ، كلمة توافق مزاجهُ وتلائم نفسيتهُ وتضاعف . . . نشوة الخمر في رأسه أنها « روح » هذه الحانة ، روحها المشرقة المتوهجة ، تجذب الفراش من بعيد . . . يحوم حولها أسعد ما يكون بالوقوف في نارها والاحتراق بلهبها . . . هي الآمرة الناهية المتحكمة ، وهي الطائعة الخاضعة المستسلمة ، هي « الحية » و« نور العين » و « حبيبة الكل » ، وهي « البنت » الخادعة الماكرة التي تلعب على مائة حبل هي الأمل والحياة والنور والظلام ، والصحو المشرق والاكفهرار المربد هي التي لا تقوّم قيمتها بشرات الكؤوس ، وهي التي تهب الضم وتجود بالعناق دون مقابل او ثمن . هي التي بسببها تشهر الحناجر والمدى وتقلب الموائد وتحطم المقاعد وأواني الخمر ، وهي التي تسل أناملها البضة الماكرة من الجيوب مايزيد رُوة الخمار ويضخمها يوماً بعد يوم هي . هي « فرحة » ! فرحة التي لا تزال ابنة ثمانية عشر ربيعاً . وستظل كذلك الى ما شاء الله « فرحة » المحفورة صورتها على ألواح الف محبة . فرحة التي يمكن لريشة الرسام ان تنقل صورتها في بضعة خطوط سريعة والتي لايحتاج القلم الى أكثر من بضع كلمات لوصفها كأن يقول مثلاً « ربعة القوام » بديعتهُ في غير اسراف ، عامرة الصدر ، نافرة الثديين ، نقية الردفين ، بيضاء البشرة واسعة الفم ، دعجاء العينين الخ . . . فرحة هذه لها الف صورة وصورة وصورة غير هذه . ومع ذلك فليس ثمة مايدعو الى العجب والدهش اما ما يذهل حقاً فهو هذا الحب ، هذا الشغف الملتهب ، هذا الذله العجيب الذي تزخره « فرحة » في قلوب رواد الحانة ، وتحيشهُ في نفوسهم وتحرق به دماءهم . الانثى التي يشتهيها الكل . الانثى الوحيدة التي تشع انوثتها في كل رأس وتدور فيه مع الخمر صورتها في كل كأس ، ورضابها في كل رشفة . تخايل الواحد في عري مطلق فوق الجنب ، فيئن ويزوم ويتلع ريقه . وتلوح للثاني ، في سؤر الكأس ، وكلها عيون تغمز وايماءات تهز وتخبل . وتبدو للثالث في شبه ضباب مخمور ، تضحك . تضحك . تقهقه . ملقية رأسها الى الوراء ، باسطة له ذراعيها . تدعوه الى اقتحام الحصن . وتعده بما لا يخطر لهُ على بال . ومع ذلك فليس من يعرف اسرار هذا البدن الا أفراد قلائل ، ثلاثة او اربعة يرتعون في مجموحة هذه الحظوة السعيدة غارقين أو حتى فوق هاماتهم في فيض نعمة سخية . والباقون . كوحوش الغاب يرودون حول الانثى ، كالكلاب الطريق الضالة تبحث بأنوفها وخياشيمها عن القريسة المنشودة !

— ٣ —

وقف بباب الحانة كعلامة الاستفهام . فلا هو يدخل ولا هو يروي قدميه ويمضي . لم يلحظ وجوده أحد وسط الضوضاء والسربدة وسحب الدخان ونشوة الخمر . « فرحه » وحدها تدور بين الموائد تضحك ... تقهقه ... تمزح بصبيها ... تتحكك بهذا بذراعيها العاريتين ... فيسرع مناولها ويطلب كأساً أخرى ... وتربت للآخر على خده بيدها الرخصة وتمر بأناملها خلال شعره فيمص شفتيه ويطلق راحته على ردفها او يمس بحذر أحد ثديها فتأتي ضاحكة ضحكا وقحة وتطلب لهُ خمراً كغرامة مفروضة ومقدرة سلفاً... وهي بين هذا وذاك لا تفتأ تردد بعضاً من اغنية مبتذلة في صوت خليع :

ايه يعني لو ربحتني وعملت غيري لبيتك
وتميل عليه وتقوله ليه طاوعتني .....

وحانت منها التفاتة فأمسكت عن الغناء بغتة والطلقت تجري نحو الباب ، ووقفت قبالة الرجل ، فلم يتحرك ولم يبدُ عليه انهُ يراها ، فذهلت هنيهة ثم كأنما تعثرت بشيء ما فابتسمت وأمسكت بيده وصاحت :

— ادخل ... يا أستاذ !

فارتعشت أهدابه وسرت في جسمه رعدة وتمتم وهو يحرك قدميه :

— آ ... ه ... صحيح ... سأدخل ...

وأعطته ظهرها وعادت الى الحانة تتخلع وتتكسر وتلوك بصوتها الشبق :

وتميل عليـ ..... ـه .....

أستاذ ! أيمكن ان يكون له اسم غير هذا ؟ هو نفسه لا يكاد يعرف اسمه الا بجهد . منذ متى يدعونه استاذاً ؟ لو اراد ان يتذكر هذا التاريخ بالضبط لكان حتماً عليه ان يعود الى اول عهده بالزميل العزيز « بؤس » ، منذ اول لحظة وضع يده في القيد مختاراً تشجعه وتغريه ابتسامة الزميل المخلص ... الى اليوم ، الى هذه الثانية ... كلما القى نظرة من حوله وجد الزميل الامين بجانبه خاضعاً ، ضئيلاً ، لاذاً به ابداً ، يتطلع اليه بعينين حزينتين وجلتين ... يده بجانب يده في القيد الابدي ! حتى في فراش نومه ... هو معه ابداً ... بجانبه ملتصق به وله من وراء ظهره غطيط لا ينقطع ... أنة قديمة وحب مقيم !

له في هذه الحانة منضدة خاصة ، وقف عليه ، لم يفكر احد ان يحتلها او ينازعه اياها . فهي اما خالية ومقعدها الى جانبها في سكنة وذلة لا تحظى من العابرين بأكثر من نظرة .. أو لمحة سريعة ، غير متمهلة ، وإما يكون هو جالساً اليها على نحو لا يذكر أحد انهُ تغير : يضع رجلاً فوق رجل ويتكىء بمرفق الى المائدة من ناحية ويعتمد عصاه تحت ابطه من ناحية ثانية ، وأمامهُ

«الزجيلة» لا يفتأ يسدل اهدابها على ايفاع كركرة اشبه ما تكون بحشرجة محتضر لا يموت ... وكأس العرق ابيض بلون الحليب — بعد كسره بالماء — يحتل أبداً وسط المائدة كأمير سحر وحوله حاشيته الخاضعة من صحون صغيرة تحمل « المزة » اشكالاً وألواناً ... ولا سلطان عليها الا لأمامل الأستاذ اما ترفع الكأس بشتف منها جرعات متزنة ، حكيمة ، مريثة ... أو هي تدور على صحون «المزة» تنتخب أجود وأشهى ما فيها . فاذا ما أتى على كأسين وشرع في الثالثة ، انفرجت اساريره واحمرت عيناه قليلاً وصفق يدعوه فرحة ا فتهلل وتباطأ مدة معينة تعرف هي بدهاء ان الشوق قد بلغ منه خلالها اقصى حده ، فتسرع اليه اذ ذاك في اهتمام واحتفال شديدين ، فيشرق وجهه وتند عن صدره تهدة خافتة ويتلقاها في ابتسامة حائرة

— أهلاً بالانس !

— أهلا فيك يا روحي

— استغفر الله ... استغفر الله ...

فتكسر جفنها وتصوب اليه من تحت اهدابها سهماً نافذاً ... يستقر في اعماق بدنه فينتفض ويتلعثم وتتمتم الكلمات الجوفاء بين شفتيه ويعد يده في وجل وارتباك ويتناول راحتها ويقبلها بنهم ويتشممها بأنفه الغليظ ... بينما تفرق هي بالضحك . « قه ... قه ... ها ... ها ... حاسب ... يا استاذ ... قه ... قه ... » وجسمها كله يتهالك وثدياها يطيشان ويهتزان ، وعيناها تشمان ... وتلمع ثناياها تحت قوس ارجواني . و« يحاسب » الاستاذ بعد لأي ، وبعد ان تكون هي قد استوثقت من أن « الاستاذ » لن يبرح الخان الا بعد كأسه السادسة ... وهكذا دائماً ...

اما الليلة . فالأمر على غير ما تعهده الخانة منذ زمن طويل . فان أول ما استدعى العجب ورسم على العيون والافواه والوجوه عدداً وافراً من علامات التعجب والاستفهام والنقاط المسلقة هو جلسة «الاستاذ» الجديدة ، الطارئة ، غير المعهودة . لم يضع رجلاً فوق رجل ، ولم يتكىء بمرفق على المنضدة من ناحية ، والقى عصاه الى أحد الاركان فأعفاها من وظيفتها في القيام تحت ابطه العزيز ! ولكن الحدث الجلل الذي اثار الهمسات والغمزات في الاركان والزوايا ونشر في الجو علامة استفهام عريضة ، ضخمة ، ثابتة ... هو ان الاستاذ لم يطلب « زجيلته » ! كان هذا كثيراً ... كثيراً جداً ... شق عليهم ان يحرموهم هكذا دفعة واحدة ... من اطيب مشهد ... « الزجيلة » وحدها

— امنها الله — فضحته ... أعلنت سره ... وأحدثت ارتباكاً وفوضى

— الاستاذ مشى بعضه على بعضه ...

— يمكن عيان ....

— مهوم ؟ ....

— مين يعرف ! — .

— ايش الحكاية ؟ ... لازم يكون فيه شي ... لأ ... ايوه .... شف ... شف ... هو ... هي ... ها ... وش ... ش ... ش ... شس ....

من الاركان والزوايا والموائد من فم لأذن ... من أنواء الآذان .. من هنا وهناك .. همهمات ... وهوسات ... خافتة ثم عالية ... فأعلى ... ثم اذا هي جلبة ... غرق فيها لحن خليع : وتيه ... ل ... علي ... ه .....

لحظة ... لحظات ... ثم قرت العاصفة واستكانت وعادت همساً خافتاً ، خفيضاً ، ثم لاشيء ... عاد كلٌّ يداعب كأسه ويتلمظ ... وغاضت علامة الاستفهام العريضة ، الضخمة ، الثابتة وارتفع صوت خليع يلوك من جديد في مجون وتهتك

وتقوله له ... طاوعه .... تي ...

لقد كان في الواقع حدثاً جللاً .. أثار وراءه غباراً ولغطاً في هذه الحانة ... ثم مرَّ يجر ذيله شأن الاحداث جميعاً حقيرة أو جليلة ... حين تُلِمُّ بعالمنا البائس ودنيانا الفانية !

العين تستطيع رؤيته الآن بوضوح ، فان نوراً لا يرحم ينسكب عليه من أعلى السقف ويجلو من حوله كل شيء ولا يدع من قسمات وجهه وسارفيه شيئاً مستوراً ، أو خافياً يتأبى له الفضول : ليس في الامكان ابدع مما كان ... تبارك الخلاق « صلعة » كوراء مجلوة لماعة ملساء تنزلق عليها الكفُّ بفعل مادة دهنية لزجة لا تجد هذه الصلعة غضاضة ان تفرزها من حين الى آخر ... فاذا ما غارت الكف وانحدرت قليلاً الى أمام تلقتها مرجة بها جبهة نابية فيها نواتىء وحزون وخطوط غائرة ونافرة ومستطيلة ومتعارضة ... كلها ألسنة ناطقة بمجد الجهاد والجلاد عشرين عاماً بجميع أيامها وأساميها وشهورها وساعاتها ودقائقها يداً بيد في قيد واحد والزميل الأمين « بؤس » ! أما أنف الاستاذ فانه في غلظه وتفرطحه من البحاتين وانساع منخريه واحمراره صيفاً وشتاء ... لآية ... وسار ... للبوغ والبقرية التي جار عليها محيطها وانكرتها عشيرتها ... عيناه فقط غير واضحتين لأول نظرة خلف « مناظره » السيكة ذات الاطار المعدني الموصول بخيط ابيض عند استدارته حول الأذن ... فاذا ما تفرس ذو طلعة بهاتين العينين حنيطة واحدة وجدها عمرتين ذابلتين لا أهداب لهما وتحتها حبوب رهوة كحبات الشب الفاسد ... الا أنها غير خابيتي الاشعاع ... حتى اذا انحدرت العين لتشبع فضولها وجدت القامة مجتباء معصوصة وسائر ما يبدو من الجسم كلهُ

أدلة دامغة على ظلم الطبيعة وشكاوى مرة تلهج أبداً بسبها الفادح وحيفها الأليم . . . وتبحث عن واحد « كنيته » ليتخذها نموذجاً بارعاً يخوله ان يصبح بحق : « ما وتم الى اليوم قروداً لا تضاهيها قرود . . . »

— أتطلب شيئاً . . . يا استاذ ؟ . . .

تقدمت اليه « فرحة » بهذا السؤال الحائر المتردد ، وهي لا تدري انحبس وتتجهم ثم تتودد اليه وتمالئه ام تهزأ به وتسخر منه . . .

— هاتي عرقاً . . .

لم يرفع رأسه ولم ينظر اليها ولم يتحرك ولم يختلج فيه عصب ! وترددت وتمهلت قليلاً قبل أن تصدع بالطلب كأنما هي تنتظر شيئاً لا يريد ان يقوله . ثم لوت أخيراً قدمها وصاحت : « واحد عرق ! » وبقي هذا السؤال في نفسها لا يجد جواباً . « أن أعلاً بالأنس . . . الى آخر ما تعهد . . . ؟ » لا بد اذن ان يكون الامر أخطر مما تظن وتتوهم !

وشرب كأساً . . . وثانية . . . وثالثة . . . ولم يأخذ من الرابعة الا رشفة او رشفتين . . . ثم دارت رأسه وثقل جفناه ووهن جسمه وانحط عليه خمول ثقيل ، وبدا له ان كل ما في الحانة يدور بسرعة غريبة وان الارض تميد من تحته والحانة تتأرجح به ! والاصوات تصل اليه مبهمة غامضة في همهمات بعيدة مختلطة . . . فاعتمد رأسه براحة يده واتكأ بمرفقه على المنضدة وأطبق جفنيه ، ولم يعد يسمع الا صوتاً متهتكاً يلوك من بعيد . . . من بعيد . . . من مكان قصي . . . « وتميل عليه . . . ه . . . وتقوله . . . له . . . . » ثم لم يلبث ان راح يهذم . . . ويهوم . . .

كان شعوره بادىء الامر كشعور من هُزِم في معركة . . . فاذا خرج منها منحتاً بجراح قمباً ، منهوكاً ، محطماً . . . فانهُ على الاقل قد استراح واستكان . . . ولو كانت راحة أشبه ما تكون بالانهيار والتهدم . . . وخيل اليه ان أعصابه كادت حقيقة ان تنقطع وتتمزق وتريق دمه كله دفعة واحدة . . . لو لم تسعفه الخمر بهذا الخمول الطارىء . . وهذا التهويم الذي أرخى له أعصابه ، وفكك ما كان ينذر بالانفجار في جسمه ، والذي يدفع به ، بيد ناعمة ، لينة ، مغرية ، الى ساعة من نوم بهيم . . . وحاجتهُ رغبة حائرة ، ضبابية . . « لو وجد نفسه في هذه اللحظة بينها في غرفته بأعلى السطح ، ومضطجعاً في فراشه بقدرة قدير . . . » ولكن هذه الرغبة ذابت بسرعة ، وطفق يغط ويصر على اسنان من حين الى حين . وانقضت فترة كأنها من العدم طفت من اعماقه خلالها سحابة سوداء حالكة انتشرت في أفق نفسه . . . وتصاعد منها بخار داكن الى رأسه . وعلى حين غرة راحت السحابة تنداح قليلاً قليلاً ذاهبة

الى مصير مجهول ، ووجد نفسه فجأة جالساً على مكتبه الحقير في غرفة بائسة رطبة بادارة جريدة « المبادىء الحرة » وعلى ارض الغرفة هنا وهناك بقع في الاركان والزوايا وفي كل مكان اعداد قديمة من جرائد مختلفة . . . وكتبة غير قليلة من « المبادىء الحرة » تحت امله بالضبط التي على كل ذلك نظرة ساخطة ثم بصق وتمخط وحاول ان يشعل لفافة فلم يجد ثقاباً فضرب الارض بقدمه ولعن الدنيا ومن فيها وكان عدداً وافراً من الشتائم على رأس صاحب الجريدة ثم هدأ واستكان على مضض وتناول القلم وجمع أمامه كوماً من جرائد ومجلات وراح يبحث عن المقص دون جدوى . وبدا له انه اذا فقد هذا المقص فلن يستطيع ان يلفق لجريدة « المبادىء الحرة » شيئاً من الاخبار والمقالات ، فمز عليه ذلك واستشاط غضباً ودفع يده تبحث في عصبية حادة تحت أكوام الورق والجرائد فاصطدمت بشيء فأخرجه فاذا به طبق ما تزال فيه آثار باقية من « الفول المدمس » وفضلات من الخبز المفن . . . فبهت وجم ! هذا الفول الذي يكاد يكون غذاءه الوحيد الذي لا يتغير ابداً . . . وانصرف غضبه الى مجرى آخر وتحرك في احشائه حقد دفين ، وعدد البشرية كلها بقبضة يده ورفقت الشتائم من فمه كالحمم يوزعها ذات اليمين وذات الشمال ويقذف بها على رأس كل مخلوق ، وانتفخت اوداجه وجحظت عيناه وتقبضت اعصابه وتصبب العرق من جبينه ثم تفذنها بصفة كبيرة جداً في وجه « المبادىء الحرة » . . . وجميع المبادىء التي في الدنيا . . . ونظر من طرف عينه الى النافذة التي الى يساره فاذا به فجأة يطل من شاهق ، وخيل اليه انه يرى فوق رأسه — في هوة السماء — نجماً يهوي بسرعة وقد خط وراءه خيطاً متقوساً لامعاً . . . فقد توازنه بغتة وانزلقت قدمه وأوشك ان يهوي من شاهق فارتعدت اوصاله وجمد دمه في عروقه وجف حلقه وانقطعت انفاسه وهوى قلبه الى حذائه دفعة واحدة ثم صعد الى حلقومه بأسرع من لمح البصر وهو ما يني يدق بشدة ويقرع له ضلوعه دون ما رحمة ، وعلى حين غرة — دون ان يدري كيف وقع ذلك — وجد الحالم نفسه على الارض الثابتة الرحبة يعدو بسرعة غريبة ومن ورائه كلب جائع ينبح من أعماق حنجرة ملتاعة . . . وعلى جانبي الطريق وقف صبيان فذرون يخلفان بالية يضحكون ويهرجون ويشيرون بأيديهم ويتراعقون . . . وظهر له ، الى اليمين ، باب مفتوح فلوى قدمه ودخل فاعترضه سلم طويل راح يصعده مذعوراً وهو يلهث ، وفي أعلى السلم وجد باباً آخر دفعه بيده فانفتح له فسارع بالدخول وصفق الباب وراءه وهو ما يزال يسمع نباح الكلب الجائع يقرع اذنيه عن قارعة الطريق لبث هنيهة لا يرى شيئاً من شدة الخوف . . . وكأنما هو قد اطمأن واستوثق من نجاته فلم يسمع الا ان ينفث من أغوار صدره زفرة عميقة ، مريحة ، وطفق يدير عينيه في المكان الجديد ، فاذا هو قاعة واسعة نظيفة ينيرها مصباح كهربائي معلق في السقف

وسمع من خلفه صوتاً حلواً ، منغوماً ، يناديه فاستدار حتى عليه فاذا به وجهاً لوجه امام غادة حسناء في غلالة ارجوانية كاسية تبتسم له ابتسامة عذبة وتدعوه قائلة : « اتبعني ! » فذهل ووجم ! وتحركت قدماه وسار ورواءها مسلوب الارادة ، الى حجرة بديعة أسدلت على نوافذها ستائر مخملية بلون الزمرد ، ونثرت في جوانبها الارائك المريحة وقامت في احد اركانها خزانة بلورية فيها أوانٍ من فضة وطرائف من الخزف والصيني ، وبسطت الأرض بسجادة ثمينة نسجت فيها الورود والأزاهير أبان ازدهارها الربيعي . وفي وسط الحجرة مائدة كبيرة تغص بالاكال والنحوم على انواعها وصحاف الخضار والفواكه والحلوى . . وعبقت بأنفه رائحة الشواء الشهي فهبت وفرقاه وسال لعابه ورواح يفض الاطباق بعيون منهومة ؟ وبدرت منه نظرة الى الغادة الحسناء فرآها تبتسم أيضاً بخار واضطرب ، ولكنها هزت له رأسها وأومأت اليه ان يجلس فتردد وخفق قلبه ، فعطفت عليه وقالت : « لم لا تجلس ؟ أما زلت مرتاعاً . . . » فارتج عليه وفقد لسانه وأدهشه أنها تعلم أنه فزع ومرتاع . . ورفع يده بغتة بحركة طائشة كأنما يريد ان يدفع عن نفسه شيئاً ولكن يده اصطدمت بكوب من الماء على المائدة فانقلب واراق ماءه على الاطباق والصحاف فجمد دمه وزاغت عيناه وانفجرت الحسناء ضاحكة بسخرية وازدراء ثم سمعها تقول بزراية واستخفاف : « أعجز من طفل وأحقر من ذبابة . . . » فدار رأسه وتخاذل وغاب لحظة عن وعيه . . . ثم أفاق من غيبوبته فوجد نفسه يخطب بأعلى صوته في حشد من الجماهير :

« . . . لم نعد عبيداً أرقاء ، أيها الاخوان ، هذا زمن تؤخذ فيه الحقوق أخذاً . . أفما يجب ان نعرف كيف نتربص الفرصة المؤاتية لننقض على الظالمين انقضاض الصاعقة ! علينا ان نكون يقظين اقوياء . سيكون النضال بيننا وبينهم حاسماً ، قاطعاً ، وسيكون النصر حليفنا في النهاية — ورفع يده بقوة ثم أهوى بقبضته على المنضدة وصاح — ان سواعدكم الفولاذية هذه هي التي ستهدم الحاضر بكل اوزاره وآثامه وتبني المستقبل — المستقبل القريب — نبيلاً زاهياً وضاح الجبين . . . »

وبدل الهتاف والاعجاب ارتفع الصفير والدق بالارجل من جميع الاركان وعلت الضحكات الهازئة وانبثت من الزوايا همهمات مختلطة تردد كلها في زراية لاذعة : « أعجز من طفل . . . وأحقر من ذبابة . . . »

وفي لمحة اختفى كل شيء وغاض ، واذا هو يسير وحيداً في الشارع القفر وقد دس يديه في جيبي سترته ، يثقل خطاه بوهن وأعياء ، وقد غامت على تفكيره سحابة من البله والتيه . . .

وتذكر بعد جهد انهُ في هذه الساعة على موعد مضروب بينه وبين «فرحة» فاندفع جازعاً وهو يقلع اقدامه بجهد فاجع ! فوجدها تنتظرهُ عند باب الخانة المنفلق فأسرع اليها وتأبط ذراعها دون ان ينبس بكلمة ، وسار يشق الظلام الى ان وصل الى عمارة شاهقة فاندفع يرقى السلم ، وفرحة الى ذراعه ، حتى بلغا غرفته بأعلى السطح . ها هي «فرحة» عنده أخيراً . . . وفي غرفته الحقيرة ايضاً . . . من يصدق ؟ . . . انها حقاً لسعادة . . . سعادة قد تنسيه كل شيء وتردّه راضياً عن الدنيا . . . وطوّقها بذراعيه واتهال بانقبل على خديها وفمها وعينيها وشعرها كمحموم . . . ثم ضمها الى صدره بظمإ وجنون ، ودفن رأسه بين نهديها وراح يهذي ويغمغم : «أهلاً بالانس . . . أهلاً بالانس . . .» وكانت هي تضحك ضحكات قصيرة متقطعة بين ذراعيه ، ثم اخرجت له لسانها وراحت تكايده ، فملا دمه في عروقه وطاش صوابه ودفعها الى السرير وراح ينضو عنها ثيابها كمخبول وهي تتلوّى وتتخلع . . . انها تشوق اياه وليالٍ . . . ولهفة قلبه المحروم . . . ولكن . . . ما الذي حدث ؟ يا للهول . . . لقد اختفت فرحة بنتة . . . ذابت . . . غارت بها الارض . . . طارت بجناحين من النافذة . . . وها هو لا يضم الى صدره شيئاً سوى وسادة . . .

صحق في مكانه . . . وهرب دمه . . . وأحسّ في أعمق أعماقه بلوعة حادة ، مؤذية تأكل أحشاءه . . . ونهض متخاذلاً ، ذليلاً ، مقهوراً ، وألقى من حوله نظرة حيوان جريح ووقع بصره فوق منضدة عرجاء على كتاب مغبر يحمل هذا الاسم : «الصبر مفتاح الفرج» ! ورفع رأسه قليلاً فصافح عينيه اطارٌ متآكل ، نخره السوس ، وضمنهُ هذه الحكمة الغالية . . . بخط جميل . . . «القناعة كنزٌ لا يفنى» ! فارتعد جسمه كله وتقلصت عضلات وجهه وطفرت من عينيه عبرة كبيرة حارة انحدرت على خده وشعرت كلُّ جارحة فيه أنهُ قد حُزِمَ الى الأبد . . . وانهُ قد قضي عليه وهوى من حالق . . . فنكس رأسه وأطرق واجماً . . . وعلى حين غرة انقض كلب بلا لونة وأطلقها من صدره ضحكة نخيفة . . . نادرة . . . أشبه ما تكون بعواء كلب يلعب . . .

***

وفي هذه اللحظة كان الخمّارُ ممسكاً بالكنة بيد وبهُنّ بيد اخرى كتف آخر زبون عنده ليوقظه فقد طال عليه النوم والتمطط . . . ولكنهُ كوم من حطام لا يُفيق . . .

يافا (فلسطين)

السجن انهُ أصبح صالحاً للافراج عنه ، فاذا رأت انهُ ما زال خطراً على الأمن تقام عرضت أمره على لجنة خاصة لابداء الرأي في ابقائه او اخلاء سبيله

والمحكوم عليه ان ينظم من قرار اللجنة امام هيئة المحكمة التي أصدرت الحكم بعقوبته في حدود سلطتها الولائية فاذا رفض تظلمه بقي مدة اخرى لا تقل عن مدة العقوبة على ان لا تجاوز سنة ويفرج عنهُ بعد ذلك افراجاً نهائياً — وفي حالة العود يكون قرار اللجنة نهائياً غير قابل للطعن. ونظراً الى خطورة المهمة التي تضطلع بها هذه اللجنة يجب ان يعنى باختيار أعضائها من رجال القانون والادارة والاخصائيين في الطب الشرعي والعلوم الجنائية

رابعاً — ينشأ قسم خاص يضم هؤلاء المسجونين الذين لم تصلح حالهم بعد انقضاء مدة العقوبة ويعفون من أداء اشغالها الجنائية فلا تعتبر هذه المدة عقوبة اخرى ويتخصصون في خلالها لوسائل الاصلاح والتقويم. وهذا النظام يغني عن تطبيق عقوبة مراقبة البوليس — ويعود الى هذه العقوبة بعد حين وتسري هذه القواعد المتقدمة على النساء ويراعى فصلهن عن الرجال

خامساً — تبقى اصلاحية الرجال على نظامها الحالي باعتبارها مخصصة لجرائم معينة ولمجرمين تعددت سوابقهم ، وتعم فيها وسائل الثقافة والتهذيب . ولربما كان للقواعد المتقدمة بعض الشبه بالقانون الصادر في انكلترا سنة ١٩٠٨ وهو يقضي بأن ينادي الأجرام بين ١٦ الى ٢١ سنة يحكم عليهم بالأشغال الشاقة وبعد انقضاء مدة العقوبة ينقلون الى السجن الواقي مدة اقصاها عشر سنوات لأصلاح حالهم. وقد وجه الى هذا القانون هناك طائفة من الانتقادات اهمها انهُ لا فائدة لعقوبة الأشغال الشاقة ما دام المسجون مآله الى السجن الواقي واقترح حذفها ولكن ردوا على ذلك بأن وجود عقوبة الاشغال الشاقة فيه معنى الزجر وان الأخذ بنظرية المتقدين يترتب عليه ان يكون البادىء في الاجرام اشد عقاباً ممن اعتاده . ولقد قال وزير الداخلية في انكلترا عن معاهد بورستال في مؤتمر السجون الدولي التاسع أن معاملتها التهذيبية حققت للشبان والشابات المفرج عنهم معاملة تهذيبية فأن معظمهم بدلاً من رجوعه الى ارتكاب الجرائم الجديدة كما كان شأنهم في السابق يأخذون الآن مكانهم في الشعب ويسيرون سيرة المحترم للقانون

وجوه اصلاح المسجونين بعد الافراج عنهم .

تقوم وجوه الاصلاح على اساسين اولهما تشريعي وثانيهما اجتماعي : —

﴿الاساس التشريعي﴾ اولاً — يجب تعديل الانظمة المعمول بها في تطبيق عقوبة مراقبة البوليس باعتبارها عقوبة تبعية او تكميلية . ذلك ان الاعتبار الملاحظ في توقيع هذه العقوبة أن يتحقق لرجال الحفظ الاشراف على المجرم بعد اخلاء سبيله مدة من الزمن يؤمن فيها على صلاح حاله وعدم عودته الى ارتكاب الجرائم — وان العلة في هذه العقوبة تطبيق الحالة

الراهنة لنظام السجون اذ انها في تجريدها من الوسائل الاصلاحية لا تحقق غير حال المسجون ولا وقاية منهُ ضد المجتمع فيتولى البوليس مراقبته بعد اخلاء سبيله في مسكنه او في مكان آخر مدة لا تزيد على خمس سنوات يفترض بعد انقضائها ان المجرم قد أصبح مأمون الجانب

فاذا كان المفروض في هذه العقوبة التحقق من صلاح المجرم وعرقلة ميوله الاجرامية فان انظمة الاصلاحيات المقترح ادخالها في السجون أبعد أثراً في الاصلاح وأوفى ضماناً

على ان مراقبة البوليس ليست مفروضة في جميع الجرائم بل هي مقتصرة على الجرائم التي اعتبر القانون توفر خطورة خاصة فيها

ولعله يتدر ان يسارع المسجون بالعودة الى الاجرام بعد اخلاء سبيله وهو ما زال مكدوداً بمتاعب السجن ونفسه شقية بطول الحرمان كما ان المراقبة ليست قاطعة في الحيلولة دون صد المجرم عن الاجرام بين مواعيد المراقبة فترات ليست قصيرة تسمح بارتكاب بعض الجرائم أو تدبيرها فضلاً عن ان المراقبة في ذاتها أدت الى صعوبات عملية ولا سيما في الاقاليم فكثيراً ما يرتكب المجرمون الموضوعون تحت المراقبة جرائمهم ويدللون على براءتهم بأنهم لم يفارقوا محل مراقبتهم في مواعيدها المقررة . كما افسدت العلاقات بين المجرمين ورجال الحفظ وسببت كثيراً من حوادث الرشوة وجنايات الاعتداء . وادارة التنفيذ في هذه المراقبة هم عساكر البوليس او الخفراء الذين هم من مستوى المراقبين ويسكنون الى جوارهم فتنعدم الثقة في اداء واجبهم بدون تساهل او تحامل . ولهذه المراقبة احكام قاسية تحد من حرية المراقب ويترتب على اهماله احد احكامها ان يقع في جريمة جنحة تدفع به الى السجن مما يساعد على افساد حاله ويعوق اصلاحه ويحطه عن وسائل الرزق ويدفعه الى الاجرام . ونرى ان اصلاحيات السجون تغني عن هذه المراقبة ويكفي تطبيقها على المجرمين العائدين وبذلك يقل عدد المراقبين ويمكن تنظيمها على وجه أكمل يطهرها من العيوب المشار اليها . أما غير العائدين فان تحريات البوليس كفيلة ببيان حالهم فان ظهر انهم ما زالوا خطرين على الأمن أمكن انذارهم مشمولين وتقديمهم للمحاكمة اذا لم تصلح حالهم طبقاً لاحكام قانون المشمولين

ثانياً — (قانون المشمولين والمتشردين) كذلك يجب المسارعة الى تعديل قانون المشمولين والمتشردين فان له تأثيراً كبيراً في فساد حالة المسجونين بعد الافراج عنهم — ذلك ان نصوصه الحالية تعوقهم عن اصلاح حالهم ومساهمتهم في ممارسة الاعمال والمهن الحرة — فالمتشرد يوضع حتماً تحت مراقبة البوليس بعد انقضاء عقوبة الحبس وهي عقبة تمنعه من مزاولة اي مهنة شريفة فضلاً عن ان اي مخالفة بسيطة لشروط هذه المراقبة ترده الى السجن ولمدة أطول من مدة العقوبة الأولى وهكذا تتوالى عليه العقوبات على هذا المنوال المزعج المشاهد في تطبيق هذا القانون فلا يفرج عنهُ نزرة الاَّ ليعود الى السجن دهراً — ولست أدري ما وجه

الخطورة في جريمة التشرد — وهي جريمة شخصية بحتة — حتى يوضع المحكوم عليه بعد انقضاء العقوبة تحت مراقبة البوليس . وكذلك حالة المشبوه فانهُ محل مطاردة شديدة ويبقى انذار الاشياء الصادر اليه وصمة أبديةٌ لا تفارقهُ مهما تصلح حاله ويبتعد عن مواطن الاجرام

وليس هناك من داع الى الاسترسال في تبيان عيوب هذا القانون فان الاجماع في دوائر الجنائية والداخلية قائم على فساده . ويعنى الآن بتعديله بما يتمشى مع وجوه الاصلاح

ثالثاً — ﴿ قانون رد الاعتبار ﴾ ان الحكم بعقوبة جناية او جنحة يؤدي الى الانتقاص من شخصية المحكوم عليه ويحول دون استعادة مكانته السابقة في الهيئة الاجتماعية ودون الوصول الى مركز شريف إذ ان الحكم بالعقاب في غالب الأحوال يشيع الحرمان من بعض الحقوق السياسية والمدنية ويسجل في قلم السوابق . وليس من العدل أن يحرم المحكوم عليه من ان يتبوأ في الهيئة الاجتماعية المكان اللائق به اذا بذل مجهوداً جديًّا ليهتدي وأقام الدليل على حسن سيرته علاوة على ان مصلحة الهيئة الاجتماعية نفسها ان يندمج فيها المحكوم عليه الذي تاب وأصلح حاله — ولذلك قررت اغلب الشرائع احكاماً لرد اعتبار المحكوم عليه

وفي القانون المصري يعاد الاعتبار بحكم قضائي من محكمة الاستئناف بعد انقضاء ثماني سنوات بالنسبة الى المحكوم عليه بعقوبة الجناية والعائد والذي سقطت عنهُ العقوبة بمضي المدة الطويلة

وفي الشرائع الحديثة كالقانون الفرنسي والايطالي يعاد الاعتبار بأحدى طريقتين اما بحكم القانون وأما بحكم القضاء الا ان اغلب القوانين اتبعت الطريقة القضائية فيعاد الاعتبار بحكم من المحكمة بعد فحص حالة الطالب — وقد اتبع القانون المصري هذه الطريقة اذ ان الاخرى محل اعتراض لأنها تسمح لشخص حياته غير مرئية وسلوكه شائن باعادة اعتباره ما دام لم يرتكب جريمة معينة او استطاع اخفاء ما يرتكبه من الجرائم فأفلت من العقاب

ومن رأيي ان المدة التي يتطلبها القانون لأعادة الاعتبار هي مدة طويلة تقيم بعض الموانع في سبيل اصلاح المسجونين ولكن بعد تطبيق وسائل الاصلاح المقترحة يجب ان تنزل المدة الى حد معقول . وأرى تحديد هذه المدة على نمط القانون الفرنسي وقد حددها بخمس سنوات في احكام الجنايات وثلاث سنوات في احكام الجنح وتزداد المدة الى الضعف في حالة العودة أو في حالة سابقة تطبيق قانون رد الاعتبار على الطالب

رابعاً — ﴿ اللوائح والقرارات الادارية ﴾ صدرت في مصر عدة لوائح وقرارات ادارية لتنظيم ممارسة بعض الاعمال والمهن الحرة تحتم الحصول على رخصة من السلطة الادارية لمزاولتها

والرخصة لا تمنح للطالب الا اذا كان خالياً من السوابق او يكون قد انقضت مدة طويلة على آخر سابقة له والحكمة المرعية في هذه القيود هي حماية مصالح الجمهور التي قد يهددها

اتصاله بأرباب هذه الحرف . واذا كان السهر على مصلحة المجموع فرض على الحكومات فان هناك تكليفاً آخر أجل شأناً وهو الكف عن مصادرة نفة من الناس وتجريدها عن حقها الطبيعي في التماس اسباب الحياة . ان المحكوم عليه الآن يقضي عقوبته وعند ما يفتح له باب السجن توصد عليه أبواب الحياة فصاحب العمل يرفض مساومته ، والدوائر الادارية تأبى عليه الارتزاق ، فلا عجب اذا فسد حاله وانتحى ناحية الاجرام

يجب التساهل في الترخيص لهذه الفئة بمزاولة الاعمال الحرة وأرى قصر المنع على المجرمين العائدين والمحكوم عليهم في جرائم خطرة بالنسبة لبعض الحرف التي لا تؤثر السابقة في مزاولة الطالب لها وانها لفرصة سانحة . وقد اصبحت هذه اللوائح والقرارات الادارية في شديد الحاجة الى تعديل لانقضاء سنين طويلة على اصدارها وتصورها عن مواجهة بعض نواحي التطور فيجب ان يعاد النظر في شروط الترخيص حتى تتسع لمساومة فئة مغلوبة على امرها بمعاونة لا تضر بمصالح المجموع

الاساس الاجتماعي

في جمعيات مساعدة المسجونين بعد الافراج

اولاً — في القرن الخامس عشر كان بعض الاغنياء يتبرعون بمبالغ لتخفيف ويلات المسجونين بعد الافراج عنهم . وفي اوائل القرن الماضي تأسست في انكلترا جمعية عهد الحاكم وهي لا تزال باقية الى الآن تؤدي معونتها نحو هؤلاء المسجونين المفرج عنهم ثم تلتها عدة جمعيات عنيت بالتماس عمل من أصحاب الاعمال لهذه الفئة ولايجاد مساكن لهم في منازل الفقراء ذوي السمعة الحسنة . وفي ١٩٠٩ قدم قومسيون السجون لوزير الداخلية الانكليزية تقريراً جاء فيه أنهُ بعد البحث الدقيق في مهمة اعادة المجرم للحياة العادية ثبت ان هذه المهمة شاقة دقيقة ذات نفقات عظيمة مما يحسن معه اعانة الحكومة لهذه الجمعيات المتطوعة ولقد وفق المستر تشرشل على هذا الرأي وقرر ضرورة تأسيس هيئة جديدة لمساعدة المفرج عنهم من سجون الاشغال الشاقة وأعلن قراره في مجلس العموم في يوليو سنة ١٩١٠

وبناء على ذلك تكونت جمعية جديدة سميت الجمعية المركزية لمساعدة المسجونين المفرج عنهم من سجون الاشغال الشاقة وضمت لها جميع الجمعيات التي كانت تعمل مستقلة ولا تعتمد الجمعية الجديدة على التبرعات والاكتتابات بل على اعانة من الحكومة ويقضي نظامها ان تتكفل بكل مسجون يفرج عنه حتى لا يتجرد من ضروريات الحياة ويصبح كفؤاً للحياة العامة

والجمعية ترسل مندوبيها للسجون لزيارة المسجونين قبل الافراج عنهم بوقت كاف للوقوف على رغباتهم وظروفهم وعما اذا كانوا يرغبون في رعاية الجمعية — والجمعية مجلس عام تمثل الجمعيات والمعاهد التي تشترك في هذا العمل الخيري ويرأس هذا المجلس وزير الداخلية

وقد نجحت هذه الجمعيات في انكلترا نجاحاً باهراً في تقويم المفرج عنهم

كذلك انشئت في انكلترا جماعة بورستال لمساعدة الشبان المجرمين الذين سبق ارسالهم الى معاهد بورستال الاصلاحية — ومهمة هذه الجماعة تقديم الملابس والطعام والسكن اللازم لهؤلاء الشبان والسعي لايجاد عمل يلائم استعدادهم . والمدة المقررة لرعاية هذه الجماعة لكل شاب سنتان . وتدل احصاءات هذه الجماعة على كبير توفيقها ونجاحها

وقد لاحظت هذه الجمعيات ان الجمهور وارباب الاعمال قد يرفضون قبول هؤلاء المفرج عنهم ولذلك عمدت هذه الجمعيات الى وسائل مغرية منها منح ارباب الاعمال بعض مبالغ لقبول هذه الفئة علاوة على ضمانة الجمعيات لهؤلاء المفرج عنهم في تعويض ما يحدثونهُ من خسائر واضرار

وأرى ان تنشىء وزارة الداخلية مكتباً خاصاً في ديوانها يتبعه مكاتب فرعية في المحافظات والمديريات للعمل على مساعدة المسجونين المفرج عنهم يقتبس نظامه من نظام هذه الجمعيات المنشأة في انكلترا يشمل جميع المسجونين المفرج عنهم من الرجال والنساء والاحداث

واجب مصالح الحكومة نحو المسجونين المفرج عنهم

ثانياً — يؤخذ من جميع احصائيات السجون في العالم ان أغلبهم من الطبقات الفقيرة التي تعد بها الحظ عن مزاولة عمل يقيها شر الحاجة ، لذلك كان من أهم المعاونات التي لها أفضل الاثر في اصلاح هذه الفئة ان لا تقبض الحكومة يدها عن توظيف هؤلاء الناس في ادارتها وفروعها وان لا تبخل عليهم بالاعمال التي تطابق استعدادهم ويحذقون أداءها ، وان تبدأ بضرب المثل للشركات والجمعيات الاهلية والافراد انهُ من خير البيئة الاجتماعية ان ترحب باندماج المحكوم عليه الذي كفر عن أثمه وطوى صفحة جرمه — لقد جثت اللجان المؤلفة للتفتيش على اصلاحية الرجال بالاشارة الى هذا المشروع الهام وخوطبت مصالح الحكومة فعلاً بالعناية بالتنفيذ ولكن بالأسف ما زالت أغلب هذه المصالح ترفض قبول ما تقدم اليها من الطلبات . لقد وفى بعض المفرج عنهم في التعيين فصلح حالهم وكانوا محلاً للاعجاب والثناء . ليس المراد تعيين هؤلاء المحكوم عليهم في أعمال هامة تتطلب حسن السيرة وكامل الثقة والبعد عن الشبهات ؟ ولكن هنالك أعمالٌ أخرى دونها خطورة لا يمنع ان تفتح ابوابها لهؤلاء الذين غلبوا على امرهم وضاقت بهم سبل الحياة

انشاء مستعمرات زراعية

ثالثاً — ويجب ان تعنى الحكومة بان تنشىء في بعض أملاكها الزراعية مستعمرات خاصة لتشغيل بعض هؤلاء المفرج عنهم المدربين على الاعمال الزراعية باجور مناسبة مما يكفل اصلاح حالهم وتقويم أخلاقهم وتحسين سيرتهم واسأل الله الهداية والتوفيق

---

(١) تقوم « رابطة الاصلاح الاجتماعي » برعاية الاحداث بعد الافراج عنهم ، وذلك بتعويد الطائفة بالصالح ودور التجارة . وتفكر في انشاء مصنع خاص صغير خاص بهم يعطيهم فيه